يوسف هداي ميس

صامدون

أختصر نجاتي وألخص حلاوتكم في الاسم الحلو الأخير الذي يليق بكوكبكم "حنظلة" كم هو شرير فاضح هذا الولد حنظلة.

سميح القاسم

1

ولدت على سطح الورق، روحي مداد القلم، وأنفاسي رائحة الصحف، أطرافي الخطوط المنحنية التي أتقن خالقي رسمها، سلمني بندقية لأنضم إلى صفوف أخواني الفدائيين، أطلق علي اسما غريبا يعادل ما لاقاه في طفولته من تهجير أذاقه الحنظل، أبقاني على عمر ثابت لا أتجاوزه، لم يسمح لي بالنمو، فظللت على سنواتي العشر لم أزدد يوما واحدا.

كنت طليق الكفين، كاشف الوجه، مقاتلا شرسا، بطلا إيجابيا أخوض المعارك دون كلل، فاعلا ذا دور حقيقي، مرن الحركة، لا أتواجد في معركة حتى أغادرها لدار حرب أخرى، هائجا صارخا في وجه الغزاة، مطلقا رشقات الكلاشنكوف على صدور الصهاينة. كان عدوي واحدا في البدء، واضحا غير متلون، سهل الصيد سريع الاقتناص، أجابهه مؤتمنا على ظهري من الغدر.

بطبعي نصير للفقراء، منحاز إليهم، أحب الأطفال العراة، ولو كان بوسعي لألبستهم الحرير، أنا ابن الفقر، ذو الملابس المرقعة والأقدام الحافية، أنا الفقير الذي أوجدني خالقي لأرسم بدلا عنه. أمسكت القلم وشرعت يداي تلطخان الورق الأبيض بلوحات أشبه بالرصاص الحي، أسدده بإتقان على أعداء القضية، متوخيا الخونة على وجه الخصوص.

أنا حنظلة.. شاهد العصر الذي لا يموت، الشاهد على الخيبات والانكسارات والهزائم، وكذلك الشاهد على الانتصارات والدماء الزكية التي ذرفت لأجل الوطن. أدخلني خالقي هذه الحياة عنوة، ولن أغادرها أبدا، لن أغادرها حتى وإن مات أو قتل، حتى تعود فلسطين حرة أبية، حينها سوف أدخل قرية الشجرة وأغرس فيها غصن الزيتون، قد أجدني هناك مرسوما على الصخور، أتساءل عمن جعلني نقشا وسط فلسطين رغم جبروت المحتلين؟. عندها فقط سوف أكبر، أشب عن الطوق وتختط لحيتي وشواربي، ليس حلما مستحيلا هذا بل واقعا حتميا تتمخض عنه السنين الحبلى بالأحداث. هو مستقبل تكتبه التضحيات التي شهدتها في سبيل الوطن. أنا الشاهد على رفعة الأمة، قاتلت قبل مولدي بعام، أطلقت الصواريخ المضادة للدبابات، أعطبتها تباعا، نزلت حمم مدفعيتنا عليهم دكا دكا، حرقنا آلياتهم وأجبرناهم على التقهقر خلف النهر. تحقق أول انتصار عربي واحتفلت به على أرض الكرامة.

لقد انتصرنا عام ثلاث وسبعين، ولكن هزمتنا الخيانة. في ذلك العام تحديدا، أدرت وجهي ووضعت ذراعي خلف ظهري وتشابكت كفاي. كتفت نفسي معلنا بوضوح عن موقفي الرافض لبوادر التطبيع مع إسرائيل، في وقفة احتجاج على العالم بأسره. ظلت يداي معقودتين حتى هذه اللحظة، أفك أسرهما ساعات النهوض ثم أعود وأشبكهما خلف ظهري. هل أصبحت سلبيا يا ترى؟ بالطبع لا.. لم أزل أنا حنظلة الإيجابي، حنظلة الذي يفضحهم وينشر غسيلهم الوسخ على الصفحات الثقافية للصحف العربية. ما زلت ضمير الأمة ولسانها الصادح بالحق، واليد الصافعة على وجوه الخونة من المطبعين وأولهم السادات. ذلك الرجل الذي جاء على نقيض من سلفه، جاءت زيارته للقدس كخنجر غدر في الظهر، أوجعني وجعلني أنوء لفرط آلامي إذ أرى زعيما عربيا يزورهم ويُحتفى به بينهم. آلمتني الهزيمة، وأية هزيمة؟ هزيمة أعقبت انتصارا كاسحا كاد يلقي بهم في البحر. ابتهجت يومها حتى خيل لي رؤية الجيوش العربية تدخل القدس محررة، وإذا بي أشاهد السادات يدخلها مصالحا. لم كل هذه يحدث لنا يا ربي؟ ماذا جنينا حتى نؤول إلى هذه الخسارات؟ لماذا التشرذم العربي؟ من السبب؟ وهل يكمن العيب فينا أم بسبب الصهيونية العالمية والامبريالية الأمريكية؟ لا.. بالطبع كل هذا بسبب إبليس.. أليس هذا ما يحاول إقناعنا به الممسوخون المتكرشون بل حتى الإعلام المأفون. إبليس هو المتسبب الرئيس في هزائمنا وانكساراتنا.

ارتديت ملابس الإحرام، ووقفت مع الجموع لرمي الجمرات على نصب ابليس اللعين، كان مع الحجيج أحد أعدائي الممسوخين، فوقفت بمعية الرجل الطيب نستمع لترهات المعتوه كيف يبرر لنفسه وللسادات أخطاءه ويلصقها بإبليس:

"عليك اللعنة يا إبليس يا لعين.. أنت اللي أقنعت السادات يزور القدس.. وأنت السبب بتأخير إعلان الجهاد وتعطيل دور النفط.. والتضامن العربي فرط بسببك وحرب الخليج وبلاوي هالأمة منك.. ولولاك كان ما ضاعت فلسطين والجنوب بخير. وكان ما خسرنا حرب ولا المقاومة خرجت من بيروت، ولولاك كاهانا مواطن صالح.. واليمن صار يمنين وكان الفقير بيحب الغني والكل بيصلي عالنبي.. وأنت اللي فرقت بيني وبين زوجتي بعد ما أقنعتني أني أخونها.. وأنت برضه اللي آآآآخ راسي.. مين ابن الزبالة اللي رجمني".

زرت كذلك قبر المقاومة المسلحة والكفاح العربي، وضعت عليه باقة ورد ملفوفا بالكوفية الفلسطينية المرقطة، تأملت شاهدته المرسوم عليها صورة السادات بصلعته اللامعة وشاربه الثخين، خلفيتها السوداء تعكس واقعنا، واسمه يعلو الصورة بوضوح، منبئا بوفاة الموقف السياسي المشرف واستبداله بمصالحة مذلة.

رسمت السادات مجردا من بزته العسكرية أو ملابسه الرسمية، مرتديا ملابس أطفال بيض مؤشرا بسبابته اتجاه اليمين، تسانده بالإشارة أصابع عدة بيد أن الرجل الطيب يقف شامخا بجلبابه العريض وحجمه الكبير الذي يظهر تقزم السادات من تحته، وهو يؤشر بإبهامه القوي أسفل دلالة الرفض وعدم السير حيث يشيرون.

سخطت على السادات حتى أصبح في نظري المتسبب الأول لما تبعه من إذلال. زرت الأهرامات، أحنيت رأسي أمامها، من خلفي تتحول أصابع الرجل الطيب إلى نار تحرق علما أمريكيا ذا نجوم سداسية، نعم، إنه العلم الصهيوأمريكي الذي عقدت تحت رايته اتفاقية كامب ديفيد.

2

لست وحدي من يتجول على صفحات الصحف، فلدي أصدقاء وكذلك أعداء. بينما اكتفيت بالمراقبة في صمت، كان أصدقائي فاعلين، لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل تهجموا على خصومهم، هزأوهم، فضحوهم، أضحكوا الدنيا عليهم، ووصل بهم الحال أن يشتموهم أمام الملأ. حضرت في كل تلك اللوحات، واضعا ذراعي خلف ظهري، أطرق برأسي تارة وأرفعه بأخرى. أستمع لما يقولون، أضحك في سري، وفي بعض الأحيان أشاركهم الحدث. من أعز أصدقائي وأقربهم إلى قلبي عائلة الرجل الطيب، هو وزوجته فاطمة. الرجل الطيب كهل عربي، ذو جلباب عريض وشارب ثخين غير مشذب، أصلع الرأس، وبلا اسم ثابت، فهو العم عباس وأبو الحسن وأبو الياس، وكذلك هو أبو جاسم وأبو أحمد وهو أيضا مارون ومحمد. إنه الفلسطيني المتشرد، والمعتقل، وهو اللبناني ضحية حرب عبثية، إنه المصري المغلوب على أمره، وهو الكويتي والسعودي والعراقي والسوداني. هو من يمثل كل هاتيك البلدان في انتمائها العربي. هو بائع الخضار في بيروت الذي يذهب ضحية تفجير سيارة مفخخة، والجريح المصاب في جنوب لبنان الذي يأبي الموت تحت شعار "صامدون". رأيته بطوله الفارع وشاربه الأسود، يلف الكوفية الفلسطينية حول رقبته وعلى صدره، مخاطبا أحد الصحفيين:

"No مسترme not شيوعي me قصدي I am ثورة حتى النصر me مع فتح فاطمة my wife كانت ولا تزال مع فلسطين my boy الكبير مع الشعب الsmall مع المقاومة اللبنانية my بنت مع الديمقراطية الباقي مش عارف مع مين. يعني كل الفاميليا ضد أمريكا وكامب ديفيد وجماعة أبو حصيرة.. I .. قصدي me فقير يعني poor ابن poor ومع ذلك يا رفيق قصدي يا مستر مش ممكن أبيع بلدي ولا ممكن أهدأ أو أسكت and if كل أولادي استشهد me مع فاطمة مستعدين نستنفر ونخلف أولاد بيرجموا حجارة yes .. ولك يا زلمة. قصدي يا مستر No one من هالزعامات بيعرف شو عمنتعزب المسيح انصلب مرة احنا كل يوم.. قال إيش أيوب صبر!! my wife فاطمة دايما بتقول الكل باعونا.. فاطمة my love أخت الرجال بتسوى ألف زلمة من اللي شاطرين بزط الحكي بس.. yes فاطمة اللي بعدها معلقة مفتاح بيتنا بالناصرة.. بتسألني عن دور النفط.. الأمريكان نازلين فيه شرب.. وإذا كان ممكن نحب أمريكا... No it is not ... طبعا احنا بنحب لبنان وخصوصا الجيش لأنو قريب من الجليل.. والمثل قال كرمال عين تكرم مرجعيون.

عمتسألني إذا أنا مسلم أو مسيحي؟ سني أو شيعي؟.. أما سؤال بارد صحيح، مش فهمتك من الأول أخو الشليطة إني poor ابن poor ".

تكلم مع الصحفي ببرود، بلا انفعال ولا هياج، لا صراخ ولا عياط، هكذا هو الرجل الطيب حتى في شتائمه هادئ، يطلق السبة مع شبه ابتسامة تلوح تحت شاربه الكث. ثمة بيوتات قميئة خلفه علقت قربها يافطة صغيرة كتب عليها "مخيم عين الحلوة" ومن فوقها تألق هلال صغير. أتذكر أن وجدته ذات يوم مقتعدا الأرض، متربعا في جلسته بين أعقاب السجائر المتناثرة، يدخن سيجارة من أخرى، صافنا متفكرا، لسان حاله يقول:

"نتيجة التقصير الواضح تجاه فلسطين ولبنان والخليج، وحزنا على الضحايا الفقراء من العرب والعجم، وخراب بيوتهم، وزاد قهري وغضبي بعد شماتة العدو الاسرائيلي والأمريكي، وبمناسبة حلول شهر رمضان الكريم. أعلن أنا رجب شعبان رمضان من مواليد القدس بأني قررت الافطار حتى الموت احتجاجا!!".

أعطى كل منا ظهره للآخر، وكان هلال رمضان يعلوه بقليل، وعلبة السجائر الفارغة ملقاة أمامه. الرجل الطيب صاحب أكبر "لا" عرفتها، حتى إنه ضمد يده بشاش أبيض علق بكتفه فاستوت اليد المكسورة مع الضماد المربوط برقبته حرف "لا" كبير ومن خلفه تتعدد اللاءات البيض أمام خلفية سوداء. بياض "لا" الرفض يزيح سواد القبول بالذلة. اخترت مكانا صغيرا جدا على يده المصابة، وقفت ويداي خلف ظهري.

في مكان آخر أمسك طيبنا مفتاحا في يده، جعل منه عكازا بديلا من قدمه المبتورة، آثار المفتاح متجهة نحو فلسطين، فيما يهم صاحبنا بركل أحد المتكرشين في مؤخرته. مفتاح القضية وحلها في قبضته وليس لدى غيره.

لهذا الرجل زوجة صالحة اسمها فاطمة، وهي صديقتي أيضا، بل أعتبرها بمثابة أم لي، ترتدي إزارا طويلة، وجهها مستدير وعيناها سوداوان. إنها المرأة الصابرة حينا المقاومة أحيانا، هي المرأة الولادة التي ترفد الوطن بالمناضلين، وهي أم الشهداء بل هي نفسها الوطن في عطائها الدائم. هي فلسطين ومصر ولبنان، وهي عين الحلوة وصبرا وصيدا، وهي الجنوب والانتفاضة، هي الخصوبة والتضحية والفناء، هي العاطفة الجياشة والحب الأبدي والعطاء اللامنتهي. إنها فلسطين الحبلى لحد الانفجار، ملقاة فوق أرض الصخرة المشرفة مقيدة القدمين بأنبوبة نفط. لم تكن حجارة صماء في رفضها ولا سلاحا فتاكا في مقاومتها، كما إنها ليست محض وعاء للولادة فحسب، إنها المحاورة الناضجة في نقاشاتها مع زوجها، هي بوصلة الأمان له في اقترابه وابتعاده من المسار الصحيح.

جلست ذات ليلة محتضنة رضيعها، قربها طفلان يجلسان على الأرض لمراجعة دروسهما، صورة زوجها في وضع مقلوب على الحائط، يعاتبها بحسرة:

"اللهم إني صائم.. أنا مش عارف ليش الكل ضدي.. بهالبيت.. يعني أنا كفرت لما قلت المخلصين للقضية من القيادات كتار.. فاطمة.. بصيامك مين اللي قلب صورتي أنت أو ابنك".

وقفت في زاوية الغرفة مستمعة لكلامه، لم ترد عليه مكتفية بابتسامة شامتة. أجل فهي التي تحرضه بذكاء على اتخاذ الموقف الصحيح. تأبى اقترابه منها في مخدع الزوجية في رفض صريح لرجولته المهشمة، واستفزاز له على اتخاذ دور أكثر إيجابية. أدارت جسمها عنه، ورفضت مداهنته. قالت بصوت حاد:

"ابعد عني.. لا تصيبني. كل ليلة جمعة باسمع منك نفس الكلام الحلو... ما بيصير إلا على خاطرك يا فاطمة كلهم أخوات شليتة يا فاطمة.. وتاني يوم بتلحس كلامك.. ابعد عني.. علي الطلاق منك".

اتسم زوجها بالبرود، إلا أنها كانت تأتيها لحظات غضب تطلق فيها صرخاتها مدوية في وجه العالم، بالأخص حينما حملت ابنها الطفل الشهيد عاليا وصاحت بأعلى صوت:

"يا رب.. احنا الفقرا اللي بنعبدك، وبنحبك بس.. وما بنطمع إلا برضاك.. شو ذنبه هالطفل.. ذنبه انه كان يلعن أبو هيك عالم يا رب.. ابني نيته طيبة وكان فاكر انو بيرضيك.. تلطف بيه يا رب.. وصبرني!!"

إنها صابرة محتسبة، أكفكف عنها دمعاتها، أراقبها حينما تبكي واستمع لصراخها إذا ما غضبت. أنصت لحوارها مع زوجها، وأرقب ابتساماتها الساخرة إذا لم يعجبها في تصرفه. قوية رغم الصعاب، تقف بوجه أعتى قوى العالم بكبرياء امرأة عربية. وكم أضحكتني حينما قال زوجها:

"غلطانة يا فاطمة. بالنسبة لقضيتنا بيظل في نظام ألطف من نظام"

أجابته على الفور باستهزائها المعهود:

"أنا اللي غلطانة يا زلمة.. وإلا أنت اللي صرت خرفان من كثر ما لخموك بإعلامهم".

فاطمة ليست كمثل النساء، أحبها لقوتها ولعطائها، أحبها لأنها عنيدة غير قابلة للكسر، وكذلك زوجها، إنه بالفعل رجل طيب، يحمل هموم وطنه ويتجرع السم الزعاف صابرا لأجل قضيته، حتى وإن شط به المسار فإن زوجته سرعان ما تعيده إلى الطريق.

مثلما أنعم خالقي علي بالأصدقاء، فقد ابتلاني بالأعداء، وألدهم بغضا أصحاب الكروش، ليس لقبح منظرهم ولا لأسباب طبقية تنظر للكرش بوصفه دالة للاضطهاد، ولكنهم في نظري مثال سيء للخانعين المتحذلقين، إنهم من باعوني وباعوا الرجل الطيب وزوجته، وانغمسوا في عالم البذخ والموائد الدسمة والحفلات الصاخبة. لا يملكون سوى لسان متحذلق بالخطابات الفارغة والتنظيرات غير المجدية. إنهم المترهلون، متسطحو الملامح، حيث تختفي الرقبة والأقدام، أغبياء، خلو من معاني الإدراك والوعي، جشعون، يتمثل فيهم العفن بأحط معانيه، هم الطارئون ومن يفتقدون صلاحية الاستمرار، وسوف يزولون لا محالة.

يرتدون الطقم الغربي، وربطة العنق، يشربون الخمر ويسكنون البيوت الفارهة بأثاثها الفاخر، يتصنعون المجاملات ويجيدون التملق. إنهم بلا كرامة، يعانون الجفاف العاطفي والحس البليد مع ضيق الأفق، مسلوبو الإرادة، يفتقرون للمضمون الإنساني الحقيقي. إنهم يكرهونني، لا لشيء سوى أنني صبي فقير أرفض السير على دربهم الأعوج. أرى ترصدهم للرجل الطيب وزوجته في محاولات فاشلة لاغتيالهما. أمقتهم لكرههم كل شيء، الأرض، الشجر، الفراشات والعصافير، يكرهون كل محاولة للاحتجاج، يسعون لتكميم الأفواه، وتقييد الأطراف، ومصادرة الحريات. كم أكره محاولتهم تلميع الغزو الثقافي الاستعماري، وتشجيع التبعية الاقتصادية ورعايتهم للإقليمية وتغذيتهم للطائفية.

أبو باصم أحد هؤلاء المسوخ، إنه من بصم بأصابعه العشرة على الخيانة، وعلى بيعنا بأبخس الأثمان. تاجر بنا في سوق القذارة السياسية، وملأ خزائنه من بئر الخيانة. أتذكر كيف وقف متأنقا يسأل الرجل الطيب بغباء:

"أنت مسلم أو مسيحي.. سني أو شيعي.. درزي أو علوي.. قبطي أو ماروني.. روم كاثوليك أو روم أرث.."

وقبل أن يكمل سؤاله السخيف، قاطعه الرجل الطيب باحتقار واختصار:

"أنا عربي يا جحش".

الرجل الطيب يجلس على برميل نفط، انتصبت أمامه بوقفتي المعتادة، تبسمت بخفوت وذهبت لأشاهد هؤلاء المسوخ بأبشع صورهم الشبيهة بالخنازير البرية، يخاطبونه بعنجهية:

"نحن الشرعية.. واللي بنشرع.. اللي بيحكي أو بيكتب أو بيرسم فهو اليمين الفلسطيني، بيروح عالنار.. لوين رايح"

التفت إليهم وهو يحمل أوراقه وأجاب بسخط:

"عجهنم"

ضحكت هذه المرة، بيد أنه لم يسمع ضحكتي أحد. لا يسمعها سوى الرجل الطيب وزوجته، إنهما رفيقاي في رحلتي الطويلة، لا يفرقنا حتى الموت، لأننا لا نموت.

3

زرت شهداء صبرا وشاتيلا، زرتهم مقبرتهم، زهرة عباد الشمس وارفة في علوها، تبكي عليهم، لم توجه قرصها للشمس، منحنية على شاهدة المقبرة، تذرف أوراقها دموعا، من خلفها شمس لم تضئ المكان رغم بياضها. وقفت أمام برميل نفط في زيارة أخرى، يستند عليه صبي يكبرني قليلا، قدمه مضمدة، يرفع وردة في يده، ومن فوهة برميل النفط تبدو صحيفة ما كتب عليها: عيد سعيد. الوقت ليلا، يتبدى هلال العيد في السماء المظلمة، كل ما يحيط بهما سوداوي.

كنت حاضرا في بيروت، أبكي على ما آلت إليه الأوضاع، خصوصا بعد سقوط عاصمة عربية أخرى، بكيت على إجبار المقاومة على الانسحاب. شكرت هذا البلد المعطاء وعاصمته العظيمة على كل ما قدمته للقضية من تضحيات. ارتديت الكوفية وحملت وردة، وقفت أمام جدار عال، ناديتها فأطلت خلال كوة حجرية، بأبهى صورة، في ريعان شبابها، ذات شعر أشقر وملامح فاتنة، تنظر لي من عل، فحييتها:

"صباح الخير يا بيروت".

سرعان ما أصبحت الزهرة مجموعة أزهار توضع في أص فخاري على النافذة الحجرية، تنظر إليها بيروت بعين حزينة ووجه باك، فتحة النافذة دائرية عوضا عن حرف O في كلمة LEBANON . المكتوبة بحروف كبيرة. هذه الزهرة كثرت حتى غدت حديقة غناء تزهر فوق ساتر ترابي يقف خلفه الرجل الطيب وعلى برميل انتصبت لافتة خشبية كتب عليها "ربيع بيروت". لقد أُحتِلتْ بيروت وسط صمت عربي واحتفالات كبيرة لمناسبة فوز المنتخب الجزائري في إحدى مباريات كأس العالم. وقفتُ إزاء سارية علم لبنان وقد استبدلت شجرة الأرز بالنجمة السداسية. أتذكر كيف رفعت يدي ملوحا فرحا وأنا أرى الزهرة التي أهديتها إلى بيروت قد استطالت وصارت اثنتين، هزمت الأسلاك الشائكة، أزاحتها بقوة وسمحت للمفردات الكثيرة ذات المعاني الكبيرة أن تعبر من تحتها. فيما اندحرت مئات النجوم السداسية جراء الهجوم الكاسح. جذور الزهرتين مكتوبة بخط واضح: "المقاومة الوطنية اللبنانية الفلسطينية".

4

ثمة عدو آخر أمقته، يربض على صدري مثل جبل من الهموم، يمضني ألمه ويفتتني حتى أني كرهت حروف اسمه. أنه عدو غير مرئي، ولا ملموس، إنه فعل يتحول إلى مصدر. لأختصر الأمر أكثر، إنه التطبيع. بسببه وقفت تلك الوقفة الشهيرة التي تصنمت عليها طيلة السنين التالية لرفضي المشاركة في الأحداث، وبسببها ألقيت سلاحي جانبا. كان التطبيع ولا يزال مرفوضا، لم ولن أتقبله، كيف لعطشان أن يتجرع السم ليطفئ ظمأه. أنا أريد الأرض وهم يريدون السلام، ولا سلام إلا باسترداد كامل أراضينا المغتصبة. يريدون حكما ذاتيا وأريد دولة مستقلة، يريدون أرباع الحلول وأريد حلا حاسما. ذهب الرجل الطيب إلى باب أوهموه بأنه حكم ذاتي، فرح المسكين وهو الباحث عن فتات أمل يتشبث به، تحت شعار عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة. فتحه فإذا به أمام جدار يمنعه من الدخول، كتب عليه "المستوطنات". كما فُتحت قبة الصخرة وارتقى إليها جندي إسرائيلي رافعا علم كيانه من داخل صحنها. جندي آخر يمسك جواز سفر. تجلس على الأرض مكتوفة الأيدي سبعة نسخ من الرجل الطيب، يتساءل هذا الجندي مع نفسه "أول جواز سفر فلسطيني مش مزور بأشوفه، الصورة طبيعية حزين وغضبان فصيلة الدم.. عدة فصائل !!!".

أجل، إنه جواز مختلف عن تلك الجوازات التي يرومها المطبعون، تلك التي تلتصق عليها صورهم ذات الابتسامات البلهاء. جاءني أبو باصم حاملا العلم الصهيوأمريكي، وكأنه في ساحة تنافسية لألعاب القوى في سباق التتابع، يريدني أن أتسلم رايته، ركلته بقدمي اليمنى وأنا واقف دون أن أحرك ساكنا. ليس لدى أبي باصم سوى الرجل الطيب يأكل مقالبه عن حسن نية، أعطاه صحن فارغا، فانغرزت الشوكة والسكين بيديه الخاليتين من الأصابع، غدر به فتسبب بجرحه بدلا من إطعامه، أوهمه بالرغيف ولم يطعمه سوى الجوع مدافا بالذلة. رأيت أبا باصم مع أشباهه ينقلون الحجارة المكعبة لبناء جدار عال يحول بيني وبين القدس، مهندس البناء الذي يتلقى منهم الطابوق مناحيم بيغن شخصيا. وقفت أمام أبي باصم وهو مبتسم بغباء وعلى صدره رقم 242 ملتفا الرقم 4 على رقبته بهيأة كوفية فلسطينية مرقطة، يرفع يده بنية علامة النصر بيد أنها تنبثق منها يد صغيرة تفتح كفيها مستسلمة.

من المؤسف أن يغدو الاستسلام من بديهيات السياسة العربية. هذا رجل عربي يعتمر العقال والكوفية البيضاء يقول: "لازم تعترفوا بإسرائيل وبعدين ترموا سلاحكم.. ثم إلى ربكم ترجعون" سبابته تشير إلى السماء، فيما وقفت أتأمل به دون حراك.

تحولت بعض البلدان العربية إلى جذوع نخل خاوية، يئست منها فلسطين الحبلى بثورة قادمة، عادت ببطن منتفخ ولسان حالها يقول: "إجت الحزينة لتفرح ما لاقت ولا مطرح". كما وقفتُ أمام شعار كبير كتبه الناس، قرأت "من راقب الأنظمة مات هما".

5

ترتج الأرض، يشتد زلزالها، تتفتت التربة، تخرج أثقالها حجارة مسنونة، تتجلمد الصخور، تتصلب، تبرم نفسها وتحد أنيابها، تتشكل بهندسة مثالية تتواءم مع الأصابع التي سوف تتلقفها، تتكاثر في أيدي الصبية، تتحول إلى سلاح لا يقهر، جلهم أطفال بعمري أو أكبر قليلا، انتفضوا وليس أمامهم سوى هذه الأرض المبارك حولها، إذن فلتقل الحجارة كلمتها. ثارت بعنف، تلقفتها الأكف بلهفة، تتقاذفها أيدي الصبية، تسدد بالرعاية الإلهية، تصيب الأعداء بكبريائهم، تذل جبروتهم، تقول: "لا". صارت الحجارة سلاحا فتاكا يفضح جبنهم ويعري الخونة أجمعين. لم أكتف بالمراقبة، بل حررت يدي من قيدهما وحملت الحجارة مع أترابي، قاتلت معهم. "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" هذا هو شعاري وأنا أسدد الحجارة تلو الأخرى على الصهاينة، أراهم يهربون، فأين تفرون والأرض كلها تغلي من تحتكم؟.

الزهرة ترتفع في أرض حجرية، فهي التربة الخصبة لهذا النوع الذي لا ينمو إلا بين الصخور، مشيت نحوها على حجارة مسنونة، متعثرا، سأصلها حتما، وبأحسن السبل، طريق الحجارة. قبضة كف كبيرة تتجلى تحت الهلال المضيء في الظلمة، هذه الكف المعروقة تمسك بقبضتها القوية حجارة تقطر ماء جراء اعتصارها، قطرات تنزل على الزهرة لترويها، إنها ليست حجارة صماء، بل مما يتفجر منها الماء.

سقطت فاطمة أمامي، يشخب الدم من رأسها، سرعان ما استحال الدم إلى كف تمسك حجارة لأخذ الثأر. كم فرحت لِما أرى من ثورة عارمة تهز الكيان من أساسه، ثورة جاءت بعد صمت طويل وهزائم متكررة. ليس لي سوى البحث عن حجارتي لألقم بها العدو. أرتديت كوفية المقاومة كاشفا عن وجهي بملامح صارمة ووقفة رجولية خلف فاطمة، محدقا في الرجل الطيب المجدول بحجرها لافظا أنفاسه الأخيرة، يرتدي بدلة حربية مرقطة، وبسطال عسكري، ممدد والدم يسيل تحته.

تأتيني أوقات أختار فيها الجلوس لوحدي، أتأمل لأيام مآل الحجارة وعما ستفعله لنا. يكفي أنها صرخة مدوية في وجه العالم الذي استدرت عنه قبل خمسة عشر عاما، لم أزل مستديرا، وذراعاي على تكتفهما خلف ظهري، قد أحررهما في حالات الصحوة، أقول كلمتي وأعود لوقفتي الشهيرة مجددا. لم أزل في العاشرة، كثر أصحابي من أطفال الحجارة، أراهم يتسربلون الأسمال الشبيهة بما أرتديه، أراهم يكيلون الجنود الاسرائيليين ما يكفيهم من مؤونة صخرية، يؤوبون بعدها لأهلهم منهمكين بعد يوم حافل بالمصادمات، يتصدون للرصاص بصدورهم، يتنفسون الغاز المسيل فيسيح الدمع عنوة، يكفكفونه ليخرجوا بعد كل جولة أصلب عودا. لم أقتصر صحبتي على أطفال الحجارة، بل صادقت صبية آخرين يجدونني أمامهم كل صباح قبيل ذهابهم للمدرسة، حينما يتصفح أهلوهم الجريدة فيشاهدونني أسفل اللوحة، عرفوني من ظهري ورأسي الكبير المدور، دون معرفة اسمي ووجهي. أصبحت رفيقهم اليومي الذي يوافيهم بأهم المستجدات على الساحة الفلسطينية بمشهد كاريكاتيري. تجولت في الصحف العربية، تتلقفني العيون بابتسامات ساخرة من واقع أليم، يشدون على يدي ويطالبونني بالاستمرار، أستمع للموظف وهو يرشف قهوة الصباح مناقشا زميله في العمل عندما رأى الرجل الطيب يرتدي معطفا كتب في بطانته بشكل عشوائي: "القدس، يافا، الناصرة، طبريا، طولكرم، غزة، جنين، رام الله، صفد، عكا، حطين، الصفصاف، بئر السبع".

ثمة طفل يسأل أمه عن مغزي النساء الثلاثة اللائي يحملن دلاءهن؟ أين ذاهبات؟ وماذا يفعلن بها؟ لم تجبه سوى بدمعة من عينيها. عجوز هرم يتساءل عن هذا الصبي الواقف قرب كف كبيرة تنغرز في الأسلاك الشائكة. سياسي يشتمني ويمزق الصحيفة عندما رأى غرق جندي المقاومة الفلسطينية في بحر العواصم العربية، بعد أن كان مقاتلا فاعلا في بيروت. ظللت متجولا في تلكم الأوراق، أتلقى الإلهام من خالقي العبقري الذي أوجدني رسما ثم كساني لحما، وبث في داخلي الروح. صرت صديقا حميما للفقراء والمخلصين، وعدوا لعينا لأصحاب الكروش والممسوخين. لم أزل بلا ملامح واضحة، لم أكشف وجهي ولم يزدد عمري، نفس العشر سنوات بقيت عليها. كبر أترابي واستووا رجالا وبقيت أنا حنظلة على ما عليه، ذلك الصبي الواقف شاهدا على النكبة.

6

لا زلت من المولعين بشعر محمود درويش، رسمت قصائده لوحات جسدت فيها انطباعاتي، فكلانا مشردان، نزحنا إلى شتات مجهول المصير. بسبب طبعي الحاد الموروث من شخصية خالقي الصلبة، لم يكن درويش بمنأى من سلاطة رسوماتي. وضعته تحت مشرط السخرية، لا لوقاحة مني وإنما لمبدئية منهجت عليها لوحاتي، فلا مجاملة لأي شخص يمس القضية. بعد أن كتب قصيدته: "بيروت خيمتنا الأخيرة". وقفت هناك أمام جريدة أقرأ عنوانها الرئيس: "محمود درويش يدعو إلى لقاء للشعراء والأدباء الاسرائيليين والفلسطينيين".

بوقفة احتجاج انتصب الرجل الطيب، يداه تضربان على الطاولة: عيناه تقولان: "لا يحق للشاعر ما لا يحق لغيره" بقربه الرجل الطيب مرة أخرى، تقول عيناه بسخط واضح: "محمود درويش" ثم الرجل الطيب ثالثا، وعلى نفس الوقفة الاحتجاجية يحسم الأمر: "محمود خيبتنا الأخيرة". أخيرا نسخة رابعة له، ينظر للجريدة بطرف عينيه اللتين تقولان: "بعدما صار عضو لجنة تنفيسية".

نعم.. لن أجامل أحدا وإن كان محمود درويش أو صاحب رشيدة مهران. قد لا يعرف البعض من تكون هذه السيدة؟ لأنها ضاعت عبر الزمن في تلافيف سخام خيباتنا الكثيرة. إنها الخط الأحمر الذي لا يُسمح بتجاوزه، وعلى من يتعدى حدوده تحمُّل التكلفة. وكل ما فعلته أنا هو عبور هذا الحد، لمست بيدي الخط الساخن، وعبثت أصابعي بالوتر المكهرب، وتر يصعق من يمسه ويودي إلى حتفه. اعتبروني متعديا حدود الأدب عندما أعلنتها صريحة، فأقمتها ثورة داخل الثورة، مكانها أوراق الصحف وهدفها ما يطلقون عليه: "البيت الداخلي". وقفت أراقب هذه المساجلة التي جرت حينما ابتدر الرجل الطيب أبا باصم بسؤال: "بتعرف رشيدة مهران؟" أجابه: "لا" وقفة أخرى مشابهة يعيد له السؤال بصيغة أخرى: "سامع فيها" فيرد "لا". هنا تتغير ملامح الرجل الطيب في المشهد الثالث، تمتد رقبته الطويلة ويتراجع أبو باصم خوفا من غضبه، صامتا يستمع إلى ما يقوله: "ما بتعرف رشيدة مهران، ولا سامع فيها!! وكيف صرت عضو بالأمانة العامة للشباب والصحفيين الفلسطينيين، لكان مين يللي داعمك بالمنظمة يا أخو الشليتة".

هل تذهب رسوماتي أدراج الرياح؟ هل هي محض تحرش عابر أم إطلاقات نارية أصابت أهدافها بدقة ولا علي سوى انتظار ردود أفعالهم الغاضبة؟. كيف سيكون انتقامهم؟ لا أعلم.. لربما يستغل أخرون هذه الفجوة بيننا ليضربوا فيضيع دمي بين الحكومات والمنظمات. انتابني هاجس كاتم الصوت، الوسيلة الوحيدة الأسرع والأنجع للتخلص من متمرد مثلي. وقفت على جنازة فلسطيني مكفن بكوفية المقاومة، لا يظهر سوى بسطاله. قرأت ما بداخله، كان مكتوبا فوقه بخط عريض: "لا لكاتم الصوت". كنت رافضا لهذا الأسلوب الجبان من الاغتيالات السياسية، ومن تكميم الأفواه، حتى الرجل الطيب أيدني بذلك، شرع يصرخ بغضب: "لا لكاتم الصوت" خطوتان مشاهما ثم سقط ضحية بهذا المسدس القاتل بخفية، حملته على ظهري رغم كبر حجمه وصغري، ولكن قوتي ساعدتني على الوقوف، لم يسقط من يدي، ولكنه مات، أردته الرصاصة قتيلا. إذا ما كنت قادرا على حمل الرجل الطيب فقد أخفقت في إنقاذ خالقي من مصيره المحتوم، حينما اخترقت رأسه نفس الرصاصة المشؤومة، كنت بمعيته، شهدت ما حصل بأم عيني، سقطنا سويا على أحد أرصفة شوارع لندن، تضمخ بدمه فساح على جسدي لأصطبغ باللون الأحمر. كان الرجل الطيب معنا، جالسا على الأرض، يفكر بصمت: "إن قلت أنا من جماعة عرفات بدهم يقتلوني، وإن قلت أنا مش من جماعة عرفات برضه بدهم يقتلوني... كيف أنفذ بجلدي إن أنكرت إني فلسطيني.. فشروا!!" أجل، فشروا إن توهموا بقدرتهم على اغتيال حنظلة، فشروا.

7

وهذا ما حصل بالفعل، لم أمت، بقيت حيا، فكما يقولون "عمر الشقي بقي" بقيت أرسم وأدون كل ما أراه من مشهدنا الفلسطيني، بقيت هناك في شوارع الضفة، ألقم العدو الحجارة، ولم أتوقف عن رصد حركات وسكنات أترابي المقاومين. كما سافرت مع الوفود العربية إلى مدريد لحضور مؤتمر السلام، ليس لغرض المشاركة، فمن يعرف حنظلة في سوق السياسة؟ ولكن لأجل المشاهدة فحسب. بعدها سافرت إلى أوسلو، هناك جلست فبكيت. هكذا وجدتني برفقة الرجل الطيب وفاطمة التي قعدت على الأرض تنكث الرمل على رأسها، فيما غطى زوجها عينيه منتحبا. بكينا ثلاثتنا على ما شاهدناه في تلك المهزلة. في أمريكا ضرب الرجل الطيب أبا باصم على عضوه الذكري بغية إخصائه، هافتا به: "مش هيك يا ترس". كما حضرت تلك المبادلة المقيتة بين شمعون بيريز وأبي باصم، الإسرائيلي يعطيه كلمات مثل: "علم فلسطيني، خاتم فلسطيني، موظفون فلسطينيون، شرطة فلسطينية" فيما احتفظ بيده الأخرى وراء ظهره بكلمات أهم: "الأمن، الحدود، السيطرة على الأرض، المستوطنات، المعابر، القدس". رأيت الرجل الطيب يجلس قرب فاطمة ويقول: "الكيان لا يستمر، ولن يستمر" تسأله زوجته "أي كيان تقصد، الكيان الاسرائيلي اللي صار دولة، أم الكيان الجديد في غزة والضفة".

أسافر أحيانا مع الرجل الطيب وزوجته إلى غزة، نتحدث مع أناسها، ونسامر أهلها، نعيش معاناتهم، ونلتمس جوعهم. أحيانا أخرى نزور رام الله، نسخر من مهزلة أطلقوا عليها الحكومة الفلسطينية. رسمني فنان لبناني وأنا جالس على مكتب وثير، كرسي فرار يدور بي، وعلى الطاولة انتصب علم اسرائيل. كذلك جعلت مني رسامة فلسطينية شرطيا أحمل عصا كهربائية، أضرب شابا من رجال المقاومة. ليس هذا فحسب، أمعنت في سخريتها من المسوخ، وجعلت أبا باصم يقبل قدم رئيس وزراء اسرائيل. فيما يمطره بنقود ورقية على رأسه.

سبق أن تحدثت عن بكائي في أوسلو، بكاء لم ينقطع طيلة حقبة التسعينات، جراء التمرد الإسرائيلي، وما يتبعه من مباركة دولية. مع نهاية القرن، ضحكت، ضحكت أخيرا، ومن يضحك أخيرا يضحك كثيرا، ضحكت وفحصت بقدمي الأرض، أجل، كنت سعيدا جدا بما قرر الفلسطينيون أن ينهوا به عقد الخذلان والهزائم، قرروا أن يهبوا ويقولوا كلمتهم الأخيرة. ضحكت فرحا لدرجة أن الرجل الطيب رقص طربا معي. القدس من جديد، تثور عليهم، تغلي، تزلزل الأرض من تحتهم، بعد زيارة مشؤومة على الصهاينة قام بها اريل شارون إلى القدس. أصبح اسمه معادلا للدم، وكأنه دراكولا، كأني به في تلك اللحظات يفتح صحيفة عربية، ليشاهدني أنا حنظلة أتبول عليه، بيد أنه يستحم بسعادة، ويغني: "يا عيني على دنيا الحمام" يسأله الرجل الطيب: "ليش فرحان وعم تغني.. هذا مش حمام دم يا حمار، هذا بول". تحول في جريدة أخرى إلى جرذ كبير ذي أنياب يسيل منها الدم، يدخل لا إراديا مصيدة الفئران، فيغلق عليه الرجل الطيب بابها. هرب من المسجد ومن القدس كلها، وفي مؤخرته علقت قدم الرجل الطيب، وهو يقول له: " اطلع يا ترس".. كان هروبه إلى منصب رئاسة الوزراء ليعلنها حربا قذرة على أطهر ثورة في القرن العشرين، ثورة الأقصى.

وقفت أرقب أبا باصم يحيي علما مرتفعا على سارية، أهم ما يميزه النجمة، لم تكن ملكية، وإنما سدادسية. وجدتني أشاهد جنديا اسرائيليا يختطف الرجل الطيب، يحمله هاربا، بيد أنه يفلت منه بعد أن يوسعه ضربا بالعقال الأردني.

رسمني فنان مغربي وأنا أقود جنديا اسرائيليا وألقي به في البحر. كما رسم آخر جزائري الرجل الطيب يجلس في مكان القاضي وفي قفص الاتهام لفيف من رؤساء الوزراء الاسرائيليين ووراء الدفاع. كما رُسمت فاطمة وهي تنشر غسيلها على حبر يمتد على طول الساحل الفلسطيني وهي تقول: "وأخيرا أصبحت حرة في بلدي". حينها أسافر متجولا بين المدن الفلسطينية، أزور القدس فألتقي بالحاج أمين الحسيني، يحييني ويبارك مسعاي لأجل القضية، يربت على كتفي ويمسح رأسي، أصلي في الأقصى، أتلمس منبر نور الدين زنكي، أقبل المصاحف، أتحسس بباطن قدمي نعومة السجاد، راحة نفسية تنتابني قبيل وداع القدس مسافرا إلى عكا، تلك المدينة الصامدة دوما، يتراءى لي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يصعد بغلته ويأتيهم بكل تواضع، كما رأيت مدافع الفرنسيين تفشل في فك حصونها المنيعة، دخلتها فرأيت غسان كنفاني منكب على أوراق بين يديه، يكتب في "رجال في الشمس" الشمس التي تظل ماثلة في أعمال الفلسطينيين، وساطعة دوما في سمائها، غسان كنفاني كان من أوائل أصدقائي الذين أحبوني، فشجعوا خالقي على الاستمرار، غسان الذي كتب "عائد إلى حيفا" وسيعود معه كل المهجرين، وسيعود محمود درويش أيضا، الذي رأيت طيفه في قلعة عكا، يحدق في الفضاء غارقا في كتابة إحدى قصائده. ودعت المدينة الخالدة إلى نابلس، فهناك فدوى طوقان بانتظاري، حيتني وقبلتني كطفل لها، ثم شرعت تردد:

* كان وراء البنت الطفلة.. عشرة أعوام.. حين دعته بصوت مخنوق بالدمع.. حنانك خذني.

مسحت دمعتها وراحت تلاعبني. كما وجدت ابراهيم طوقان الذي سلم علي كرجل لرجل، مبتسما وطلقا. غادرتهما إلى مدن فلسطينية أخرى، التقيت بأعلامها ودرت بحاراتها وأزقتها، لعبت على روابيها واغتنمت الفرصة لأزور قرية الشجرة، حيث ولد خالقي، وجدته هناك بعمر العاشرة، يسير لوحده واضعا ذراعيه خلف ظهره، يتأمل الخلاء البعيد متسائلا مع نفسه:

* يا ترى.. إذا ما غادرت الآن، هل سأعود؟. ومتى أعود؟.

أجابه صوت عربي من بعيد.

"سنرجع يوما إلى حينا، ونغرق في دافئات المنى، سنرجع.. مهما يمر الزمان، وتنأي المسافات ما بيننا".

ها هو عبدالرحيم محمود يصدح صوته على مسمعي:

"سأحمل روحي على راحتي

وألقى بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق

وإما ممات يغيظ العدى"

ومن بعده رنت بأذني قصيدة أحمد محرم:

"فلسطين صبرا إن للفوز موعدا

فإلا تفوزي اليوم فانتظري غدا

إذا السيف لم يسعفه أسعف نفسه

بيأس يراه السيف حتما مجردا"

تبعهما صوت ينشد لمحمود طه أسطورته التي أضحت نشيدا لكل الفلسطينيين والعرب أجمعين:

"أخي جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفدا

أي أيها العربي الأبي

أرى اليوم موعدنا لا الغدا"

من بعده يطلب نزار قباني بندقيته بعد أن باع خاتم أمه ورهن محفظته، فكل ما قرأه ودرسه لم يعد يساوي شيئا أمام البندقية.

"أصبح عندي الآن بندقية، إلى فلسطين خذوني معكم.

إلى ربى حزينة كوجه مجدلية

يا أيها الثوار

في القدس، في الخليل، في بيسان، في الأغوار".

أنشدني قباني رائعة أخرى:

"يا قدس يا مدينة الأحزان

يا دمعة كبيرة تجول في الأجفان"

ثم شنف سمعي محمود درويش بصوته الشجي:

"على هذه الأرض ما يستحق الحياة: تردد أبريل، رائحة الخبز في الفجر، آراء امرأة في الرجال، كتابات اسخيليوس، أول الحب، عشب على حجر، أمهات يقفن على خيط ناي، وخوف الغزاة من الذكريات".